المدينة والإيتوبيا :مدينة الشمس أنموذجا

City and Utopia- Sun City as example

د.شريف الدين بن دوبه*

جامعة سعيدة ، الجزائر Email : charif.bend†ouba@univ-saida.dz

تاريخ الإرسال: 2020/01/30 تاريخ القبول: 2020/11/06 تاريخ النشر:2020/07/09

الملخص:

عرف تاريخ الفكر البشري كثيرا من المدن الايتوبية او الطوباوية. التي جسدت الأمل البشري في العدل وفي السعادة، وقد تميزت هذه المشاريع الاصلاحية بخصوصيات معينة، فإذا كانت الجمهورية الافلاطونية تسعى من خلال التربية المواطنية الى تحقيق السعادة والعدالة، فإن مدينة الفارابي قائمة على مواقف وآراء قيمية، تفرق بين المدن الفاضلة، والضالة، وفي هذه الدراسة نروم التعاطي مع مدينة الشمس للفيلسوف الايطالي توماسو كامبانيلا التي تتأسس على بنيات ابستمولوجية معرفية.

الكلمات المفتاحية: مدينة الشمس؛أمير المعرفة؛ أمير الحب؛ أمير الحرب.

A***stract :***

Utopia is a hypothetical city that dreams of realizing human beings, it is the city where the mental capabilities of individuals are realized, and the utopian society was present in many political and social studies in the ancient, including the book of politics for Plato, through which the utopia was known as an idea and a project, and in this study we seek to study the city of the sun for the thinker The Italian Tommaso Campanella, in which he combines knowledge and politics in building the city.

Keyword :Utopia ; city ; knowledg.e ; politics ; the city of the sun

* المؤلف المُرسل

مقدمة :

يمكن القول أن التفكير الايتوبي أو الطوباوي . كما يصطلح عليه البعض . سبق تاريخيا خطابه في ساحة الوجود، لأن الأمل بسعادة المجتمع الكامل أو الأفضل فكرة راودت الإنسان منذ وجوده، على قاعدة الإمكانيات المتعددة التي يملكها، والبحث عن الشيء دليل على وجوده؛ ونجد في التراث الديني بجميع تنوعاته الثقافية التوحيدية والوثنية بذور الحلم أو الإيتوبيا.

أما الخطاب فهو الصورة المعرفية التي تشكل بوتقة لمسار التفكير التأسيسي لمحتويات الخطاب ومنهجياته المتعددة، وقد كان الحضور البشري إلى عالم الإمكان الحدث الذي بنيت عليه جميع الثقافات، والنحت المفهومي والاصطلاحي تعبيرعن بعض من تلك الإمكانيات التي يملكها الإنسان، وتصبح رغبته في الخلود مظهرا ايتوبيا انطولوجيا، إذ أن الخلود يقتضي الحضور في عالم الوجود، فقد وجد الإنسان للبقاء لا للفناء. نص محمدي يمشرع الرغبة في البقاء..

والبعد المكاني في السعادة الإنسانية يقع موقع القلب فيها، إذ أن معايشة اللذة أو قيمة السعادة في دلالات الخلود تقتضي حضورا في المكان بكل فضاءاته الحسية المحايثة للذات التي تطلب، والعالم المنفصل عن عالم هذه الذات.. وأبعاد المكان المتخيل أو الذهني قاعدة للتفكير الايتوبي.

كما أن الإجماع الموجود في التاريخ الديني بين فقهاء الديانات يقر بأن رغبة آدم سلام الله عليه في الخلود هي التي أخرجته من الجنة، وإن كانت المسألة في الفلسفة الدينية تعالج في صور مختلفة.. فهاجس الجنة، السعادة ..الخلود ..الحب ..الهناء كلها تعبيرات عن الإرهاص الايتوبي أو الطوباوي عند بني البشر، و ملحمة جلجامش البابلية تحمل الكثير من البذور الطوباوية، فرحلة جلجامش إلى جبال الأرز بحثا عن الخلود،

ورغبته في القضاء على الشر، ونسبية الانحراف عن القاعدة" انكيدو نموذجا" تؤكّد البعد الطوباوي ووجوده في الفكر الإنساني، كما أن فكرة البحث عن الفردوس المفقود تعبير آخر عن هذه الحقيقة، وهذا الخطاب يمثّل وثيقة انتروبولوجية وتاريخية تعتمد في معرفة ثقافة وقيم الأسلاف.

1. الايتوبيا :

الفضاء الايتيمولوجي للكلمة يعكس الأسس الثقافية للجماعة اللغوية الناحتة للمصطلح، واليوتوبيا أو الايتوبيا كلمة يونانية ou topos ، وهي مركبة من ou وتعني no أي اللا ، و topos تعني أي مكان place، والكلمة تعني no place أو No where. وتصبح اليوتوبيا: ليست مكانا، أو اللامكان[1].

أما الترجمة في اللغة العربية لـ utopie بكلمة **طوبى الطوبى** يطرح الكثير من الإشكالات، تعود في جلها للنعرات الإيديولوجية، فاختيار المصطلح عند البعض من المفكرين العرب، تحكمه مبدأ المفاضلة، والذي يتجّه دوما صوب الذاتية في التقييم، وعلماء اللغة العرب يجمعون على أن طوبى :مصدر بمعنى الطيب أصله طيبي، قلبت الياء واوا لسكونها بعد ضمة وهي أيضا جمع الطيبة بالكسر، وهو من نوادر الجموع [2].

وهناك روايات تراثية تربط بين كلمة "طوبى "الواردة في القرآن الكريم بالجنة أو أرض الأحلام في لغات الهند أو لغة الحبشيين.

ولكن البعض من المتخصصين في اليوتوبيا يعتقد أنها ترجمة غير مناسبة لأن اليوتوبيا هي الأين الذي لا أين له أو مدينة غير موجودة في أي مكان، أما الطوبي فهي ارض السعادة، ويستند على وجوب التفرقة بين كلمة : utopia و كلمة eutopia [3].

ونجد هذه الإشارة في التعريف الذي يضعه عبد المنعم الحفني في موسوعته:"المكان المتخيل الذي لا وجود له على أي أرض"[4]

فهي مدينة لا مكان لها. وقد أخذت اليوتوبيا في عصر الايديولوجيات موضعا قيميا، أصبح الخطاب الايتوبي حالة مرضية تعكس الشعور بالنقص، وليس الأمل في حياة أفضل، ولذا نجد تصنيف اليوتوبيا في الفكر الإنساني إلى يوتوبيا الهروب ويوتوبيا البناء ، وهذا ما ذهب إليه لويس ممفورد Lewis Memford في كتابه قصة اليوتوبيا.

هناك تعريفات متباينة لدلالة المصطلح فاليوتوبيا في قاموس بول فولكييه الفلسفي:" .. مشروع أو حلم بمجتمع أو الحلم بمستقبل خيالي ومرغوب فيه."[5]

وفي نفس السياق نجد الخلفية واضحة أو اللامنطوق في مفهوم اليوتوبيا في موسوعة كميل الحاج إذ يطلق هذا اللفظ على كل كتاب يصوّر النظام المثالي للمجتمع الإنساني وعلى كل المؤلفات السياسية والاقتصادية والأدبية والفلسفية التي تنحو نحو إقامة مدينة فاضلة[6] .

وفي فضاء المعترك الإيديولوجي نجد المعتقد حاضرا في تعريف اليوتوبيا التي تصفها باللامعقولة واللاعلمية فهي مجرد فرضيات وتخيلات لا تمت بصلة إلى الواقع ونفس الرؤية نلمسها في المعجم الفلسفي الذي أصدره مجمع اللغة العربية، في تعريفه لها بأنها كل فكرة أو نظرية لا تتصل بالواقع أو لا يمكن تحقيقها أو مالا يعبّر عن الواقع ويكون أشبه بالخيال .[7]أو هي نسيج خيالي لا وجود له في عالم الحقيقة، والطوباوي من يتصف بجموح الخيال والبعد عن الواقع . [8]

الاستقراء الأولي لتاريخ وثقافات الشعوب يؤكد لنا وجود هذا النمط من الأفكار عند الجميع وليس حكرا على أمة من الأمم، وأشكال التعبير عن هذا النمط من الثقافة لا تأخذ صورة واحدة، فالأسلوب القصصي يغلب على بعضها مثل يوتوبيا توماس مور، و مدينة الشمس:توماسو كامبانيلا و مدينة المسيحيين: أندريا فالنتين، والبعض من هذه اليوتوبيات كتب بأسلوب الحوار مثل أفلاطون في جمهوريته أما الصورة التعبيرية لليوتوبيا في المجتمع الفرعوني والصيني والبابلي فكانت أدب الآخرة، وهو لون أدبي ينتقل الكاتب فيه بالقارئ إلى عالم الجنة وعالم الجحيم بغية تصوير السلوك النموذجي المرغوب

فيه مثل رسالة الغفران: أبي العلاء المعري والكوميديا الإلهية: دانتيه الياري ومسرحية الضفادع أريستوفانيس..

اليوتوبيا إذن هي الحلم بمجتمع عادل يبدو أنه ينتاب الخيال الإنساني ويعاوده باستمرار، على نحو لا يمكن اجتثاثه أو استئصاله في مختلف العصور، سواء سمي بملكوت السماء أو المجتمع اللاطبقي أو العصر الذهبي الذي وجد ذاته مرة في الزمان السحيق.. فاليوتوبيا هي بناء اجتماعي مثالي خال من العنف والقهر والتملك إلى درجة تجعل إمكانية تحقيقه على أرض الواقع صعبة، ويبقى تعلق إمكانية التحقق للمشاريع المثالية مأخذا على اليوتوبيا، في حين أن العيب هو في تقاعس الإنسان عن مواكبة المشروع، ولكننا نجدها تسعى إلى وضع مشاريع مستقبلية وبناء مجتمعات يوتوبية، مثل يوتوبيا المجتمع الشيوعي، ويوتوبيا المجتمع الرأسمالي، ويوتوبيا العولمة .

2. كامبانيلا Tomaso Campanella :

توماز‌و كامبانيلا [**1659/1568**]راهب وفيلسوف وشاعر، ومنجِّم ايطالي، انتسب إلى النظام الدومينيكاني[9]. بدأ حياته كاتبا ومؤلّفا ولكن سرعان ما اصطدم بمحاكمات، انتهت بأكثر من عقوبة واحدة في عام 1591 حكم عليه بالحبس في نابولي بسبب مؤلف له مشهور عن الإثبات الفلسفي وبعد ذلك تعاقبت المحاكمات عليه، وفي عام 1597 قُدِّم للمحاكمة مرة أخرى بسبب أفكاره حول مثاليته، وبسبب دفاعه عن الجمهورية التيوقراطية، ومهاجمته للكنيسة، وحوكم مرة ثانية عام1599، حيث تظاهر بالجنون، ورغم تعذيبه طويلا، فقد ظل على موقفه حتى صدر الحكم بالسجن المؤبد في عام 1602 وظل في السجن طوال 27 عاما، دون أن يتغير موقفه ودون أن يتساهل في آرائه وأفكاره.

اعتمد كامبانيلا فلسفة الوحدة السياسيّة في الجنس البشري، مبدأ مطلقا يفسِّر فلسفته في الحركة، وخلال وجوده في السجن لم تنقطع كتاباته، ومراسلاته مع العالم الخارجي، وفي سنة 1626 استطاعت الحكومة الاسبانية أن تحرّره من السجن، وفعلا

انتقل إلى روما حيث سمح له البابا اوروباتو الثامن بالإقامة ومزاولة نشاطه الفكري من جديد، فعاد يدافع عن فكرة الوحدة جاعلا من فرنسا محور تصوره للعالم السياسي الجديد، وعلى هذا الأساس ساعد سفير فرنسا كامبانيلا على مغادرة ايطاليا حيث قضى بقية حياته في باريس، تحت حماية ملك فرنسا لويس السادس عشر، الى أن توفي في 1639.

ترك مجموعة ضخمة من المؤلّفات الفلسفيّة والسياسيّة تصل إلى حوالي ثلاثين كتابا، أهمها كتاب :دلالة الأشياء والسحر الذي عرض فيه آراء تليزيو، ويقدم موقفه من السحر إذ يعرفه بأنه فن استخدام قوى النجوم وتأثير الإرادة الإنسانية في الطبيعة [10].

وهذا الموقف يضعه في موقع التناقض والمفارقة مع غاليلي، وكتاب دفاع عن غاليليو كتبه في 1622، تضمن تصورات الحرية الفكرية التي كانت عنوانا لعصر النهضة، إذ " دعا فيه الكنيسة إلى ترك الحرية للبحث القائم على التجربة، لأن كتاب الطبيعة إذا درس درسا عميقا بات متفقا مع الكتاب المقدس"[11]

أما كتاب **في الفلسفة العامة أو الميتافيزيقا** فيلتقي فيه مع ديكارت إلى حد بعيد، ويقيم فيه آراءه وآراء تيليزيو على أساس عقلي، أما كتاب مدينة الشمس فيعرض فيه أفكاره الاجتماعية ناحيا منحى أفلاطون في الجمهورية وتوماس مور في يوتوبياه.

أ. **مدينة الشمس:**

يضع رجال الفكر السياسي كتاب مدينة الشمس ضمن قائمة أمّهات الكتب السياسية الرئيسة في مجال دراستهم، إذ يستبطن الكتاب مشروع ثوري سياسي واجتماعي على الوضع الاجتماعي آنذاك، وقيادته لحركة ثورية باءت بالفشل دليل على أفق التغيير الذي كان يأمل كامبانيلا في تحقيقه.

أما الجنس الفني الذي ينضوي تحته الكتاب فهو الرواية، والصنف من حيث المضمون هو الأدب اليوتوبي، نقاط التقاطع بينهما تظهر في أن "اليوتوبيا ترسم مكانا متخيلا، وكذلك تفعل الرواية وفي حين تعرّف اليوتوبيات بأنها " لا مكان" أي لا مكان واقعي أو موجود، فإن مكان الرواية هو كذلك مكان متخيل وبمعنى أخر فهو لا مكان.."[12]

مدينة الشمس حوارية بين شخصيتين الفارس هوسبيتار وبحار من جنوة يصف المدينة المثالية التي زارها خلال إحدى رحلاته..

تقع مدينة الشمس بالقرب من تابروبان، فوق سهل مترامي الأطراف، وهي مقسَمة على هيئة دوائر، لكل دائرة أربع أبواب، وللوصول إليها يقتضي المرور عبر أربع شوارع، ويوجد معبد في مركز الدائرة الملاحظ أن هندسة أو مخطط المدينة أقيم بدافع أمني بحت وهو حماية المواطنين من الغزوات والاعتداءات الخارجية، لأن غياب الأمن والأمان داخل الوطن يفقد المواطن القدرة الأولية لممارسة حقوق المواطنة، فالخوف عن الذات والأهل يدفع المواطن إلى التفكير فقط في الآليات اللازمة للحماية، وتصبح الحقوق الأخرى للمواطنة ثانوية.

ب. **بنية المدينة:**

يترأس المدينة ملك عادل يسمى الشمس Hoh[13]، ومعناه في لغتنا البحار الميتافيزيقي وهو رئيسهم الروحي والزمني ويرجع إليه في كل الأمور،[14]

يملك الميتافيزيقي السلطة السياسيّة والإدارية لهذه المدينة، فهو:"ميتافيزيقي من جنس الكاهن الأعلى، يملك العلم الكلي والسيادة المطلقة، والذي يقترب أو يشبه في الميتافيزيقا الجوهر الأول"[15].

وصلاحياته الدستورية ليست مطلقة، بل نجد السلطة السياسيّة موزعة بين مجموعة من الهيئات، تتركب من مجلس استشاري يقوم بمساعدة الحاكم في تسيير شؤون البلاد، فهم باللغة السياسيّة المعاصرة وزراء، أوفي اصطلاح النظام الملكي أمراء، وهم كالتالي:

وزير القوة الذي أسندت له شؤون الحرب والسياسة، سواء كانت سلطة القرار، أو الاهتمام بشؤون الحكام العسكريين والمحاربين، والجنود والذخيرة، والتحصين.

وزير العلم أمير المعرفة الحكمة Sapience مسئول عن جميع العلوم، وعن الدكاترة، والأساتذة المتخصصين في الفنون الحرة والآلية، ويساعده عدد من المشرفين أو القضاة مساو لعدد العلوم، وهم المنجم، وعالم الهندسة، والفيزياء، والبلاغة، والنحو،

والطبيب والعالم في السياسة والأخلاق .هؤلاء العلماء لهم كتاب واحد هو كتاب الحكمة يقرأ على الشعب كله حسب تقليد الفيثاغوريين.

ويمكن القول أن سلطة المعرفة شبه حاليا جميع الوزارات المتعلقة بالتعليم والتكوين المعرفي سواء كان مرحليا أو تعليما أكاديميا.

أما أمير الحب فهو المسئول عن الشؤون الاجتماعية والأسرية، وتنظيم العلاقات بين المواطنين.

وعليه فالنظام السياسي في مدينة الشمس يتركّب من الحاكم الأعلى الشمس، ثم يليه في التراتبية أمير القوة Pon، وأمير الحكمة Sin، وأمير الحب Mar، حيث يمثّل هؤلاء الهيئة التنفيذية، وبجانبها (توجد جمعيتان تشريعيتان إحداهما تتألف من رجال الدين ولها سلطة التشريع، والثانية تتألّف من جمهور الشعب ولها الفصل في أمور السلم والحرب وإقرار القوانين "[16].

ت. **مدينة الشمس والنظام السياسي:**

من خلال المعطيات السابقة يبدو أن النظام السياسي موزع بطريقة تقوم على منطق العقل والعلم، فترأس شخص هرم السلطة مسألة ضرورية، ولا يمكن الاستغناء عنها، كما أن الحاكم الأعلى ليس مستبدا بالصلاحيات الإدارية بل هي مقسمة بالعدل على الأمراء الثلاث أمير الجيش، أمير الحكمة، أمير الحب.

يقول ويل ديورانت :"..وكل موظفيها صفوة مختارة، وهم قابلون للعزل عن طريق جمعية وطنية تضم كل من بلغ العشرين من سكان المدينة، وهؤلاء الموظفون المختارون على هذا الأساس، يختارون بدورهم رئيس الحكومة الكاهن الذي يسمى Hoh[17]

والرؤساء الثلاثة عشر يجتمعون برئاسة الميتافيزيقي كل ثمانية أيام للبتّ في تعيينات رؤساء المقاطعات أو دوائر المدينة، أما الأمراء الثلاث عشر فينتخبون في اجتماع عام يحضره الجميع.."[18].

ث. شروط الحاكم:

الموسوعية:

شروط الحاكم الأعلى في المدينة ليست معطاة للجميع، يقول:" لا يستطيع أحد أن يصبح (o) إذا لم يكن ملما بتواريخ الشعوب وطقوسها وقرابينها وقوانينها، ثم يجب أن يكون على دراية بجميع الفنون الآلية، وأن يتعلم منها كل يومين فنا جديدا، وعليه أن يعرف جميع العلوم كالرياضيات والفيزياء والتنجيم، كما أنه ليس في حاجة إلى معرفة اللغات لأن لديه مترجمين ... "[19]

العمر: ينبغي ان يكون عمر الحاكم قد تخطى الخامسة والثلاثين لكي يتسنى له الحصول على مثل هذا المركز وأن يستمر في شغل منصبه حتى يتم العثور على رجل يفوقه علما وقدرة على النهوض بأعباء الحكم، وهو يملك جميع الصلاحيات مادامت الشروط متوفرة فيه، وإذا غابت وجب عزله و إقالته.

ومن هنا تظهر نسبية التعيين في مدينة الشمس، فلا بقاء ولا استقرار في الحكم على قاعدة السلطة وحيازة السلطة، بل الحاكم كشخص مشروط والوجود والبقاء بحضور الشروط.

الوطنية:

الإشارات اللطيفة الواردة في كتاب مدينة الشمس عن الوطنية، ما جاء في ثنايا الحوار حول المشاعية، فإذا كان كل شيء مشاع، والضروري متوفر للجميع، فلم العمل، وما الغايات التي ستحرك المواطن نحو العمل يبدو أن بداية الحوار تبدأ بالإقرار بالعجز عن مناقشة الفكرة، والجواب كان أن الدافع إلى العمل والاجتهاد هو الوطنية :" لا يمكنني أن أناقش هذه الفكرة، وكل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنهم يحبون وطنهم حبا صادقا عجيبا، بل إن حبهم لوطنهم أعظم من حب الرومان لبلادهم، لأنهم ذهبوا في التخلي عن الملكية إلى حد أبعد منهم بكثير، وأعتقد أن القسيسين والرهبان، عندنا لو استغنوا عن العائلات والأصدقاء، وعن أي طموح إلى المناصب العليا، لأصبحت ملكياتهم أقل مما هي عليه وتشربوا بروح القداسة والإحسان للجميع.

ج. **مدينة الشمس و أخلاقية السياسة**:

تعتمد الممارسة السياسيّة أساسا على القيم الأخلاقية، وتطبيق ومراقبة ممارسات المواطنين لمدى التزامها بالقيم أو انحرافها عنها، يقول B. Malon" التدخل الحكومي ليس له حد لأن جميع القيم الأخلاقية مطلوبة، فالقانون منح هذه القيم بعدا أو صيغة رسمية، فحتى القضاة يعينون طبقا للسلم الأخلاقي فالشهامة أو الأريحية و الشجاعة، العفة، الكرم، العدل والإنصاف، الحذق، الحقيقة..[20]

يتبين لنا أن الدلالات الأخلاقية المتضمنة في اليوتوبيات هي مصدر استقى منها رجال السياسة مبادئهم أو بالأحرى شعاراتهم، فالمفكر Villegardelle المترجم الوفي لتوماس مور، وكامبانيلا يصرّح بأن مدينة الشمس أعلى من اليوتوبيا لتوماس مور.[21]

أخلقة المعرفة :

المعرفة رأس القيم التي ينبغي التحلّي بها، لدرجة تصل بالمواطن إلى عبادة المعرفة، فالمعرفة بجميع العلوم فريضة، لأن الارتقاء الإنساني لا يتم إلا بها فهي القوة التي تمكننا من التحكم في الطبيعة، كما أن لغات التواصل العالمي ينبغي على مواطن مدينة الشمس التمكن منها جميعا، يقول كامبانيلا:".. وقد أظهرت تعجبي من معرفتهم الواسعة بالتاريخ، فأخبروني أنهم يعرفون لغات كل الأمم، لأن من عادتهم إرسال السفراء إلى جميع بلاد العالم لتعلم مالها من خير أو شر، وقد حصلوا من ذلك فوائد جمة..."[22] فالغاية من المعرفة، والتمكّن من لغات العالم، هي المعرفة أو العلم بالتجارب الأخلاقية للأمم.

نسبية الملكية الفردية:

تشير الظروف التاريخية لفكرة المشاعية، أن امتعاض المجتمع البشري خلال حركته التاريخية من الملكية الفردية، ومن النتائج السلبية التي استتبعتها، فالمشاعية في التصور الأفلاطوني متعلقة بالمسألة الجنسية أما عند كامبانيلا فتتجاوز المسائل الجنسية إلى المجد والمال والمعرفة واللذات، يقول كامبانيلا : " كل الأشياء مشتركة بين السكان، ويقوم القضاة بالإشراف على إدارتها، ولا يقتصر الاشتراك على الطعام، بل يشمل المعرفة والمباهج والمسرات وأوجه التشريف والتكريم، بحيث لا يستطيع شخص أن ينفرد بتملك

أي شيء..[23].الملكية الفردية رأس الخطايا وأم الآفات الاجتماعية، فالتفاوت في ملكية الأشياء يخلق حالات الحرمان وبالتالي تتولد الجرائم، فالغنى والفقر ليس جبرية فوقية (لاهوتية) بل هي جبرية إنسانية، وفي الفقرة التالية يبرر كامبانيلا تصور المشاعية :"..تشكل الملكية الأَصل في حب الذات، فالأب الحريص على أن يهيئ لابنه الثروة والترف، إما أن يسعى للاستحواذ على الثروة العامة، وذلك إن كان قويا وجريئا، وإما أن يصبح جشعا ومنافقا إذا كان ضعيفا، ولو جرد الناس من حب الذات لما بقي إلا الحب الذي يجمع بين أعضاء المجتمع" ولذا نجد مؤرخو الفكر الاشتراكي يضعون كامبانيلا في مصاف رواده على قاعدة المشاعية المطروحة في مدينة الشمس .

الأسرة و الانتخاب النوعي:

يلتقي كامبانيلا مع أفلاطون في مسألة اختيار المرأة لإنجاب مواطنين صالحين، ولكنه يمنح صلاحية هذا الاختيار لأمير الحب الذي يشرف على زواج الجنسين ليستوثقوا من أنهم يتصلوا بعضهم البعض لينجبوا أحسن الذرية، فسكان مدينة الشمس كما ورد في الحوار يسخرون من الآخرين الذين يهتمون بنتاج الخيل والكلاب، ويهملون نسل الإنسان، ومن الأولى التفكير في النوع وكماله لأنه المجسد الحقيقي لله في الأرض، كم أن القضاة في مدينة الشمس حددوا للزواج أو اللقاء الجنسي سنا معينة فهو للرجال 21 سنة وللنساء19 سنة [24].فالاتحاد أو اللقاء الجنسي ليس الغرض منه فقط الحفاظ على النوع أو تحسينه بل أيضا لتحسين العمل الجماعي .،فعلى حد تعبير بول جانيه : يجعل كامبانيلا من مهام القضاة مراقبة العلاقات الطبيعية الحرة للنوع البشري، ويكلف شرطة مستبدة ومتسلطة وفضولية بمتابعة العواطف الشخصية، إذ تجاهل حقوق القلب والكرامة الفردية.."[25] .

مراحل التربية:

- **اولوية المعرفة:**

تحتل العلوم المكانة الرئيسة في التربية والتعليم في مدينة الشمس، إضافة إلى العمل اليدوي، وفلسفة التربية تقوم على أسس فنية رومانسية، فالتصوير على رأس الديداكتيك البيداغوجي في هذه المدينة، فالتدريس بالعرض أو بما نسميه حاليا المجلات الحائطية يعتبر وسيلة ناجعة في تكوين المتعلّم، فالعين أو الملاحظة الحسية هي نافذة مواطن مدينة الشمس نحو المعرفة ونحو آفاق الكون، ويتولى التدريس أو التكوين المرحلي أربعة من الشيوخ الذين يتولون التدريس ..وفي سن السابعة يتعرفون على المعارف أو المهارات الحركية .."يتعلم كل فرد جميع أنواع الفنون.. وبعد بلوغ الثالثة من العمر يتعلم الأطفال اللغة وحروف الأبجدية بالمشي حول الحوائط في أربعة صفوف يقودهم أربعة من كبار السن الذين يتولون التدريس لهم، ويعودون حتى سن السابعة...ويؤخذون في جولات حول الورش الخاصة بالحرف المختلفة كالخياطين والنقاشين والصائغين ..لكي يكتشفوا ميولهم واستعداداتهم... فالتربية على حب الوطن تبدأ بتكوين القاعدة المعرفية للمواطن وليس التجهيل، لأن خطر الجاهل أكبر من خطر العارف أو العالم، ومراعاة القدرات فيحد ذاته عدل وإنصاف.

- **العمل و مبدأ التقسيم:**

العمل والمعرفة هما عماد مجتمع المدينة التي أسسها كامبانيلا في فكره قبل أن يجسدها في كتابه، ومعاناته مع التعذيب الذي رافقه طيلة حياته و الذي استمر في إحدى الحالات مدة أربعين ساعة [26].

فالعمل دون معرفة جنون، والمعرفة دون عمل عبث، إذ أشاد كامبانيلا بفضل العمل الإنساني ونعى على هؤلاء الذين يأكلون من عمل غيرهم، فهؤلاء في الدولة أشبه بالعقيمات، فالعمل واجب على كل مواطن، ولكن مراعاة الاستعدادات والفوارق الفردية والجنسية ضروري لتحقيق الإنصاف، فعمل الأنوثة يختلف عن عمل الرجال، فيجب

إذن أن يكلف كل مواطن بالعمل الذي يناسب استعداده، لأن العمل فضيلة إنسانية، ولا يجب أن ننظر إلى مقامات الرجال ودرجاتهم الاجتماعية؛ فهذه تحدّد بالعمل والخدمات في سبيل المواطنين ،كما تطرق كامبانيلا لمسألة توزيع الإنتاج، فالكل له الحق في الإنتاج بحكم المواطنية، ولكن التوزيع خاضع لمقاييس العدل والإنصاف، فدرجة المساهمة في العمل الاجتماعي تشكل معيارا في عدالة التوزيع، ومتى كان العمل مفروضا على كل مواطن، والإنتاج موزعا بحيث يكفل إسعاد كل مواطن، انتفت في المجتمع غرائز الأنانية وحب الأثرة وقوى التضامن المادي والروحي بين أعضائه. ومتى اطمئن المواطنون إلى تحصيل أرزاقهم وتوفر لهم ما أرادوه، انصرفت جهودهم إلى تحصيل العلم والمعارف والى التفلسف والمساهمة بنصيب فعال في الشؤون السياسيّة والاجتماعية.

اليوتوبيا والاصلاح الاجتماعي:

على العموم يعتقد البعض من رجال الفكر والسياسة أن اليوتوبيا تقوم على إنكار سلامة المجتمع القائم والتشكيك في إمكانية إصلاحه. ومن هذه الزاوية فهي تنطوي على مشروعات نظرية منفصلة عن الحقائق الاجتماعية القائمة والتطور التاريخي الذي قاد إليها، فهي تتعامل مع النظام الاجتماعي في لحظة معينة كحقيقة مستقلة عن زمانها ومكانها وتاريخها، أي بكلمة أخرى، منفصلة عن حقيقتها كتجمع إنساني ذي هوية تاريخية، فهي لا تنظر أبداً إلى «الإمكانية» الفعلية لتحول المجتمع المنظور إلى مدينة فاضلة طبقاً للتصور المقترح إذ يميل أكثر دعاة المدينة الفاضلة إلى اعتبار الطبيعة الإنسانية فاضلة، وأن ما يعرض للفرد من آثام هو ثمرة للظروف الاجتماعية.

وهذا ما نلاحظه في اليوتوبيات، فإذا جرى استبدال هذا المجتمع بمجتمع جديد فاضل، فسوف يزول الإثم وأسبابه من حياة الجماعة بصورة أوتوماتيكية. يعتقد هؤلاء الدعاة أيضاً بأن الإنسان مؤهل لبلوغ درجة الكمال، وينادون بضرورة إصلاحه وتمكينه من بلوغ تلك المرتبة. طبقاً لهذه الرؤية فإن غرائب حياة الإنسان وما تنطوي عليه من نوازع شريرة ليست جزءاً من طبيعته الإنسانية. وهم ينادون بهذه الرؤية في مقابل تلك التي تقول بأن طبيعة الإنسان وجوهره ينطوي على نوازع الخير والشر معاً كما ينطوي على

أسباب السعادة وأسباب الشقاء، وأن تغيّر شروط الحياة في بيئته الاجتماعية يمكن أن تخفف من النوازع الشريرة في الإنسان، أو تزيد نزوعه إلى الخير والفضائل لكنها لا تغيّر أبداً من جوهر الطبيعة الإنسانية التي تظل على الدوام قابلة لسلوك طريق الخير بمثل ما هي قابلة لسلوك الطريق المعاكس. لا يأخذ المثاليون بهذه الرؤية ولا يقبلون بما يترتب عليها. بل يرون أن تغيير الظرف الاجتماعي سوف يؤدي إلى اقتلاع أسباب الإثم والشقاء نهائيًّا، أي عودة الإنسان إلى ما يعتبرونه جوهره الأصلي الفاضل والخيِّر وبناء على هذه الرؤية فقد انشغل المثاليون ودعاة المدينة الفاضلة بالهدف، أي تغيير المجتمع، وركزوا على الإدارة والقيادة بوصفهما العامل الحاسم في الإصلاح. وقد قادهم هذا التركيز -كما هو متوقع- إلى إغفال موضوع الإصلاح ووسيلته الأساسية، أي الإنسان، وما ينطوي عليه المجتمع الإنساني من مشارب متنوعة، ورؤى مختلفة وتجارب متباينة. يمكن القول - مجازاً- إن المثاليين قد نظروا إلى المجتمع الإنساني كقالب جامد يتكون من أجزاء متماثلة الصفات والخصائص، وقابلة للتبديل والتعديل على يد الفئة الأصلح أو الأكمل. ومن هذا المنطلق فقد وفّرت النظريات الفلسفيّة المثالية التبرير المناسب للنظريات والمناهج السياسيّة الشمولية.

ونعتقد أن الخطاب اليوتوبي هو خطاب إنسان ما بالقوة لإنسان ما بالفعل، فالإنسانية الحقيقية والفعلية تتسّتر في الخطاب اليوتوبي بجميع أشكاله رواية، قصة، رسم، سينما ..معبّرة أولا عن الرفض والكبت الذي مارسه من يشترك في الصفات الخلقية ضد الآخر، فهو لا يعبّر فعليا إلا عن الكائن الحيواني، فمن وظائف اليوتوبيا الوعي بال ليس – بعد ' فهي على حد تعبير الأستاذة عطيات أبو السعود رسم ما قد كان وما يزال جديرا بأن يبقى في المستقبل، وهي تفصح عما لم يتكشف في الماضي ..[27]، فالمثل والقيم الأخلاقية تشكل الدافع الرئيس لكتابة جميع اليوتوبيات، فالأخلاق هي القانون بلغة السياسة، والسياسة هي الأخلاق أو الايتيقا بلغة الأخلاق، وبما أن العنف أو التسلُّط الممارس من قبل المؤسَّسات الثقافية دينية كانت أو سياسيّة كان عوامل إبداع اليوتوبيا فإن جميع اليوتوبيات مهدت لظهور مبدأ المواطنة في العهد الحديث والمعاصر، وفي الأخير

يمكن القول أن القيم الأخلاقية لا تنفصل عن قيم الجمال، ولا عن قيم الحق، واليوتوبيات فن التعبير عن الأمل بالسعادة في عصر اليأس والاغتراب.

الخاتمة:

الفصل بين البعد الأخلاقي والاجتماعي يحاكي الفصل السكولائي بين المادة والصورة، فإذا كانت الهيولى أو المادة لا تعرف أو تدرك إلا في الصورة، فكذلك من الاستحالة عقلا، وعرفا، وعلما تصوّر الجماعة في غياب الأخلاق أو ايتيقا، فالحسّ الأخلاقي جِبلة طبيعية في ذاتية الفرد وذاتية الجماعة، لأن الممارسات الأخلاقية في كلّ مستوياتها العليا أو الدنيا تؤكد هذه الحقيقة، فالممارسة أو الايتيقا فضاء أول تجلّت فيه هذه الخاصية، كما كانت ولازالت المعين الذي استقى منه فلاسفة الأخلاق المعايير والنظريات الأخلاقية.

الأدب اليوتوبي تعبير عن وحدة النزوع الأخلاقي بين بني البشر، كما تتجلى التقاطعات بين هذا اللون الأدبي وبين كثير من المذاهب الأخلاقية، وستكون "مدينة الشمس " لتوماسو كامبانيلا محطة الوقفة البحثية التي نسعى فيها لتشخيص بعض اللحاظ المشتركة بينها وبين مباحث الفلسفة الأخلاقية، فكل جميل يعود إلى اليوتوبيا.

قائمة المصادر والمراجع :

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي الجزء الثاني ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،1982،ص24 ، (د،ط)

[2] عبد الله البستاني ، البستان (معجم لغوي) ، الجزء الثاني ،(حرف الطاء) المطبعة الأميركانية ، بيروت ،1930، (د، ط)

[3] عبد العزيز لبيب ، الايتوبيا والايتوبيات . مجلة فصول العدد 3/4 المجلد السابع ابريل /سلمبر /1987 ص 124

[4] عبد المنعم الحفني ، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ،الطبعة الثالثة ، 2000، حرف الطاء .

[5] P، foulquié، Dictionnaire de la langue philosophique p، f، u، 3eme édition، 1978، 746-747 PP paris

[6] كميل الحاج ، الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي ، مكتبة لبنان ،لبنان ، الطبعة الأولى، 2000 ، ص :337

[7] مجموعة من المؤلفين، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983،ص:113، د.ط

[8] عبده الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، المركز التربوي للبحوث والإنماء، لبنان، الطبعة الأولى، 1994، حرف الطاء

[9] فرقة مسيحية ترجع الى القديس دومينيك (1170 /1221) الذي كان مشبعا بروح التغيير والإصلاح في سلك الرهبنة فأسس مع مجموعة من الرهبان فرقة الدومينيكان التي كانت تعيش في نظام جماعي على نمط حياة جماعة الرسل الأولين في أورشليم .

10 يوسف كرم ،تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ، مصر، الطبعة الخامسة 1986 ص :37

[11] المرجع نفسه ،ص :37

[12] محمد كامل الخطيب / الرواية واليوتوبيا دار المدى للثقافة والنشر سورية 1995 ص : 28 (د.ط)

[13] ديورانت ،ول ،قصة الحضارة ، ص: 303

[14] Tommaso Campanella ,La Cité du soleil ,Traduction française Arnaud tripet, Librairie Droz Genève، 5eme tirage ,2000 P:6

15 Janet, Paul, Histoire de la Science Politique, Tome second ,librairie philosophique de ladrange,2edition, Paris,1872,p256

[16] مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ،الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1966 ص :182 (د.ط)

[17] ول ديورانت ، المرجع نفسه ، ص : 303

18 Léon Blanchet ،Campanella ،librairie Félix Alcan ،PARIS، 1920،P 499

[19] ماريا لويزا برنيري المدينة الفاضلة عبر التاريخ ، ترجمة عطيات ابو السعود .عالم المعرفة 225/ سنة 1997 ، ص 133

20 Malon ،B، Précis historique et pratique de socialisme،feiix alcan، paris 1892،p 25

21 Ibid،p،24

[22] ماريا لويزا برنيري ، المرجع نفسه ، ص 130

[23] المرجع نفسه ، ص :130

24 Léon Blanchet ،Campanella ،librairie Félix Alcan ،PARIS، 1920،P 500

25 Janet، Paul ،Histoire de la Science Politique، Tome second ،librairie philosophique de ladrange،2edition، Paris،1872،p257

[26] ول ديورانت ، المرجع نفسه ، ص302

[27] عطيات أبو السعود، المرجع نفسه ، ص :132